القطيع . . .

الأستاذ سيد قطب

لظى الشمس ؟ أم فوّارةٌ من جهنم ... تسيل شظاياها ، وتنضحُ بالدم
هو القيظ قد فارت ينابيع وقده ... وفاضت على الأرضين فى كل مَجْثَم
وضاق رواق الظل عنها وأرسلتْ ... من الشمس أرسالُ إلى كل مبهم (١)
فمال إلى الراعى الشّطوطِ قطيعه ... يبث رجاءً فى ثغاء متمتم
وناجاه ، ويح الظلّ إن نحن لم نَمِلْ ... إليه ، ويا بشراه سعيا لمغنم !
عينا بهذا الضرب فى كل حرّةٍ (٢) ... وراء ذماء من شراب ومطعم
وما أنت — لو تدرى — برابح صفقةٍ ... ولا نحن ؛ إنا كلّنا ذلك العَمِى !
نسير بصحراء الحياة ، ولا نرى ... سوى ظلّنا ، يطغى على كل مَعْلَم
يسخرنا من لا نراه ، لغاية ... يراها ، ولم تؤذَنْ بها أو نفهّم !
فأيها الراعى هدوءا وهَيْنَةً ... إلى الظل نرتعْ لحظة أو نهوم
فمال به الراعى إلى ظل دوحةٍ ... ظليل ، وعشب نابتٍ قرب جدول

* * *

تناهى إليها الطير من وقدة اللظى ... وثاب اليها الظل فى غير متعجَلِ
وألقى عصاه ، ثم ألقى بجسمه ... وقد ضافَهُ بالأينِ طول التنقل
وراغ إلى الماء القطيع كأنما ... تَدَهْدَهَ (٣) جرف من بطيح مزلزل
يعب ويستسقى بشوق ولهفة ... ويُفعَم ريّا من معلٍّ ومنهل

---

(١) جمع رسل ، وهو القوج .
(٢) الأرض ذات الحجارة السوداء وهى عادة حارة ومن هنا كانت التسمية .
(٣) اهتز واللفظ نفسه يصور الاهتزاز .

فلـــا ارتوى آوى إلى الظل مُجهَدا وقد خلَّ فى أعضائه كلُّ مفصل
فنام على الأعشاب ، ما إنْ ترى له رءوسٌ ، فقد دُسَّتْ بأحناء مدخل
توحد جسم الشاء كالزَّرَدِ التقت مَداخله ، وانساب جم التسلسل (١)
كأن شاء ذياك القطيع تَوَحُّدا فأغفل ذاك الرأس رمزَ التعقل (٢)
ويا طالمـــا قد فرَّق الناسَ رأسُهم وما يقتضيه من طِماح ومأمـــل

***

وطافت على الراعى رؤًى عسجدية وجالت به الأحلام كلَّ مَجـــال
لقد هبط الوادى فألفـــاه جَنَّةً بمـــا فيه من خفض وهدأة بال
وماء غزير النبع سلسال منهـــل يحف به عشب وفيض ظلال
ويا حبـذا نفح النسيم وطيبـه ورياه من رفق به وبلال
ألا إنه هذا النعيم ، وإنهـــا هى الجنة الفيحاء خلق خيال !
وقد غادر الوادى إلى الغاب ، ياله من الخوف فى هَوْلٍ به وصيالِ
يزجر فيه الوحش من كل فائك قد اختلطت أصواته كعوال
وتعصف فيه الريح ، يا هولَ عصفها زئير أسود ، أو فحيح صِلال
فهَبَّ مفيقا ، يستبين حياته ليوقن أن لم تصطدم بوبال (٣)
فألفى قطيع الشاء يدعو فصيله إلى الثدْى ، فى صوتٍ يجلجل عال

***

(١) حينما يجثم القطيع يدس رؤسه بين أجسامه فلا يرى الرائى إلا اجساما متداخلة كالزرد .

(٢) كأنما يريد القطيع بدس رؤوسه أن يخفى رمز التعقل فيه وهو رمز الفردية فلولا العقل ما كان التميز والتفرد .

(٣) حينما يستيقظ الانسان من حلم مرعب فاول ما يخطر له أن يتبين أنه ليس حقيقة .

وأطرق يستوحى الرُّؤَى ويحها الرؤى ... إلى أين قد طافت به غير عالم ؟
وأين من الوادى خطاه ؟ وإنها ... لآمال راج أو خيالات حالم !
وأين هو الغاب الرَّعيب ؟ وإنه ... ليهفو إلى ماض سحيق المعالم (١)
لأعياه تأويل الرؤى ، غير أنه ... يحسُّ هدوءاً فى ضلال الطلاسم (٢)
فمال على ، أرغو له ، يستجيشه ... خواطره بالذكريات الهوائم (٣)
فرجع أنغاما من الغاب وزنها ... وألحانها نسم الرياض الحوالم (٤)
فأوزانها ذكرى ، وألحانها منًى ... كذلك يشدو فى الورى كلُّ ناعم (٥)
وقد رقت الآصال وانسلَّتِ الصبا ... وصات مع الأرغول صوت السوائم
فكان مزاج من جمال ووحشة ... ولذاتِ موهوبٍ وآلام غارم
وغشّى على الدنيا ظلاَم فهوّمت ... ونامت كطفل فى الغرارة هائم (٦)

---

(١) تنبعث الأحلام غالبا عن مصدرين : الآمال التى يتخيلها الانسان فى المستقبل ويرغب فى تحقيقها (الرغبات المكبوته على رأى فرويد) ، والأحاسيس السابقة للفرد وللنوع كله وكذلك كانت أحلام الراعى ، أملا فى الوادى الخصيب ورغبة ، وذكرى للغاب وطن الأنسان الأول والراعى فى سذاجة وبيئة يكاد عالمه ينحصر بين الوادى والغاب

(٢) أحس الراعى باحساس مبهم بعد الحلم وشعر بالراحة ، وهو شعور طبيعى للحالم لأنه نفس عن نفسه بالأحلام .

(٣) يغنى الانسان أو يستعذب الغناء (والموسيقا عامة) لأنه مزيج من الذكرى والأمل . ولعل هذه أغراض الفنون جميعا وعلة استرواح النفوس لها .

(٤) و (٥) يفسرهما ما تقدم

(٦) الحياة كالطفل الغرير لأنها ستنام لتحلم ، وتستيقظ لتنشط وهى تكاد لاتتعظ بأمس وحوادثه فتغير طريقها أو تمل جهادها !!!